

الفصل السابع والخمسون

أسعد طراد

بيت طراد عائلة شهيرة في بيروت، وفيها جماعة من أرباب الثروة والتجارة، ورجال الأدب والشعراء، ومن شعرائهم أسعد طراد، وُلد في بيروت سنة ١٨٣٥م، وليس فيها من المدارس — يومئذ — ما يستحق الذكر، فأرسله والده إلى المدرسة الأميركية في عبيه بלבنا، فتلقى فيها مبادئ العلم وبعض العلوم العالية، وقرأ العلوم العربية على أشهر الأساتذة، وكان مفطوراً على الشعر منذ حداثته، فأكثر من التردد إلى المرحوم الشيخ ناصيف اليازجين ونظم قصائد عديدة في مواضيع تحدى فيها شعر الشيخ من السهولة والمنة.

وتقلّب (رحمه الله) في مناصب الحكومة العثمانية، وكان موضع ثقة أولي الأمر لنزاهته ونشاطه، وفي سنة ١٨٧٢م برح سورية وجاء القطر المصري، وأقام به يتعاطى التجارة في الإسكندرية وزفتى والمنصورة إلى أن توفاه الله سنة ١٨٩١م، فعني ابن أخيه الخواجة فضل الله طراد بجمع ما تيسر من قصائده، فجمع نحوًا من ألف وخمس مئة بيت، طبعها في كتاب وقف على طبعه ورثته نجيب أفندي طراد، وهذه أمثلة منه:
قال من قصيدة مدح بها الشيخ ناصيف اليازجي:

إلى كم فؤادي يطلب العشق والحبًا	ولم أزل إلا الوجد والوعد والعتبا
عرفت بأن لا يعرف الود والوفا	لديك ولا يدري المحب له ذنبا
غزالة أنس بات قلبي لها حمى	عليه عيوني قد غدت تمطر السحبا
تصيد ولكن لا تصاد على المدى	وتسبي قلوب العاشقين ولا تسبى
تقول اصطبر فالصبر للقلب واجب	ولم تبق لي للصبر يوم النوى قلبا

سمعت بخود في الورى رحمت صبا
غريقًا فقد عاف التواصل والقربا
وحلت فؤادي ترغب السلب والنهبا
فقد علمتني الرفع والجزم والنصبا
سأشكو جفاها للذي أورث العربا
كأهل الظما من بحره نطلب الشربا
من العرب هذا صدره جمع الكتبا
وأهون شيء أن يحل لك الصعبا
فقبل سؤال منك تنظره لبي

أأطمع منها بالوصول ولم أكن
وقد خاف نومي أن يبیت بمدمعي
وقد جزمت عن ناظري اليوم وجهها
نصبت لها قلبي لترفع جزمها
قد انتسبت للعرب من أبدعوا الوفا
إلى اليازجي اليوم تسعى ركابنا
لئن دثرت كتب الألى قد تقدموا
وأصعب شيء عنده منع فضله
على أي شيء نحوه جئت سائلًا

وقال من قصيدة أجاب بها الشيخ محمد عاقل بالإسكندرية:

وهي التي بالسحر تفتن بابلا
لي من قضاة الحب شخصًا عادلا
من عاشق قبلي أطاع العاذلا
وبمهجتي أخفيت ذاك القاتلا

هيهات يسلم من جفونك عاشق
أترى لمن أشكو الحبيب ولا أرى
يا عاذلي في حبه مهلاً فما
إني قتيل في الغرام على رضى

وله قصيدة رنانة وصف فيها الاختراعات الجديدة، نقتطف منها قوله:

ملكك حشاك بخدرها مصفودا
في عصرنا في قطر مصر جديدا
إني أرى ماءً يجرُ حديدا
قد قَرَّبًا ما كان منك بعيدا
مع بُعدها أهل العراق نشيدا
في أصبهان لقدمها تأويدا
عجبا وهاك الطائر الغرّيدا
فكأنما حمل البريد بريدا
ويجوه متنوعًا معدودا

واترك حدوج المالكية إنها
ما بالحدائج والهواذج ما ترى
وجّه لحاظك للبخار وقل له
وانظر لسلك البرق والتلفون كم
غنّت سليمان في الحجاز فأطربت
ولسوف إن رققت بمصر فقد نرى
أله الفؤاد بذكر ذاك وذا وذا
يهدى إليك مع البريد بوصفه
يصف البريد ببره وببحره

ذاك الصديق الصادق الخل الذي
ويريك منه بوصفه خلًّا يرى
حمل السفاتج والنضار لأهلها
يطوي القفار فكم عليه حلة
متفرع في أرض مصر كنيلاها
أبدًا يطوف بها كصاحب كرمة
لا يعرف التأجيل والتعريدا
حفظ الأمانة سنة وعهودا
وسرى بحول الله يطوي البيدا
منها وكم منه بها أخدودا
يسقي التجارة سقي ذاك صعيذا
يهدى لكل محطة عنقودا

وقال يرثي الشيخ حسنين شيخ الزاهدين بالمنصورة:

سرى الحسنين اليوم يغتتم الأجرأ
وعن جانب النيل ارتقى نحو جنة
بكته بنو المنصورة اليوم حسرة
أراهم يبكون الدما وكأنني
ينوحون شيخ الزهد والنسك والتقى
وسحت عيون الأفق حتى كأنما
فريدا وحيدًا قد قضى العمر زاهدا
عن الوابل استغنى بظل قناعة
من المسجد الأقصى فسبحان من أسرى
جرت تحتها الأنهار جلّ الذي أجرى
فكم عمها لطفًا وأكسبها نصرأ
أراني من أماقهم أعصر الخمرأ
ومن عمهم بالفضل عمهم برا
منيته قد أبكت الأنجم الزهرا
ولازم في أيامه الفقر والقفرا
في كسرة عما استعز به كسرى

وقال يرثي المرحوم سليم بسترس المتوفى في لندن:

خلّ الحزين اليوم في حسراته
واطرح أحاديث السلو اليوم عن
دنف غرام البين لم يترك له
نشوان كأس نوائب الدنيا على
ولكل بلوى أنة في صدره
ودع العزاء لمن يعي كلماته
دنف يخاف عليك من صعدياته
من قلبه إلا صغار فتاته
أنواعها حسب اختلاف سقاته
فتعد ما تحويه من أناته

إلى أن قال:

واقته تخطر مع لفيف عفاته
بيديه كانت عند بذل هباته
بذواته وقضاته وولاته
للشرق تعزية لقلب فراته

لاقى المنية باسمًا فكأنها
وكأنما تلك النفيسة نفسه
عظمت بقلب الشرق حسرة فقده
والنيل من أسف تمنى لو جرى

ومن قصيدة رثا بها المرحوم سمعان كرم بالإسكندرية يخاطب الموت:

ويلاه لا يمحي خط القضاء ولو
وألف ويلاه كم برّحت في مهج
وكم ظلمت ولم ترحم نواح أخ
وكم جمعت بدار اللحد من نفر
وكم أسرت غداة الروع من ملك
وكم غلبت بدار الأسر متخذًا
وكم مشيت على هام المشاة وكم
ما خفت مجدًا ولا جاهًا ولا شرفًا
ولم تبال بأبطال الرجال ولو
ولا قبلت شفيعًا لو عزمت على
كم شاخ جيلٌ فجيلٌ وانقضى ومضى
أفانيت عادًا وشيبانًا وجرهمة
وعشت في كل نفس كنت تسلبها
حتى متى وإلى كم لا تموت ودع
هيهات ينظر موت الموت ذو رمق
فحينًا موته حي بصاحبه
وميتنا موته ميت قضى معه
يا أيها الميت لا موتًا يعاد فكُن
مهما تبددت لا تخشُ الفناء فقد

مهما أمحي منك مما خط تبياننا
يا موت فتكًا وكم فرّحت أجفانا
على أخيه وكم يتمت ولدانا
جمع الفراق وكم فرقت إخوانا
بين الجنود وكم عطلت تيجانا
نوابب الدهر أجنادًا وسجانا
ألقيت عن صهوات الخيل فرسانا
ولا سمواً ولا قدرًا ولا شاننا
شنوا الإغارة فرسانًا وركباننا
فتكٍ ولو كان ريبًا بنت مروانا
وأنت فيك الصبا يزداد ريعانا
وتغلبًا وبني بكر وغسانا
رغمًا وما زلت بالأرواح ريانا
ليوم موتك كي يبكيك إنسانا
من الورى أكسبته النفس وجدانا
ما لم يمت لم يجد للموت هجرانا
كأنه وكأن الموت ما كانا
من بعد ذا في سرير الملك سلطانا
صادفت في فسحات الكون خزاننا